﴿العلماء عصمة بعد الله من الفتن﴾

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه المبين: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

والصلاة والسلام على من أرسله رحمة للعالمين القائل: {العلماء ورثة الأنبياء} .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الارتباط بالعلم والعلماء –علماء أهل السنة والأثر - هو العصمة بعد رحمة الله من الفتن، ولهذا جاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية توضح ذلك وتبينه وتأمر به.

فالله عز وجل يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

يقول السعدي رحمه الله: "هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة".

وروى أبو داود والترمذي وغيرهما عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

والخلفاء الراشدون قيل معناه: الخلفاء الأربعة، وقيل: جميع الصحابة، وقيل: العلماء الذين يخلفون رسول الله ﷺ في سنته.

ولا مانع من شمول ذلك كله، فالخير والهدي في اتباع الخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرسول ﷺ في سنته وحكمه، وفي الصحابة الذين ورثوا الرسول ﷺ وعايشوا نزول الوحي، والعلماء الربانيون الذين هم ورثة الأنبياء.

يقول عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن أمنائهم وعلمائهم، فإذا أخذوا من صغارهم وشرارهم هلكوا".

يقول ابن قتيبة رحمه الله معلقاً: "يريد لا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم المشايخ، ولم يكن علماؤهم الأحداث، لأن الشيخ زالت عنه متعة الشباب وحدثه وعجلته وسفهه، واستصحب التجربة والخبرة، فلا يدخل عليه في علمه الشبهة، ولا يغلب عليه الهوى، ولا يميل به الطمع، ولا يستزله الشيطان استزلال الحدث، ومع السن الجلالة والوقار والهيبة، والحدث قد يدخل عليه هذه الأمور التي أمنت على الشيخ، فإذا دخلت عليه وأفتى هلك وأهلك".

ويقول الإمام أحمد رحمه الله: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين".

إنَّ هذه النصوص تبين فضل العلم وأهله، وأنهم المأمن بعد الله من الفتن.

ومن سبر التاريخ وجد حقيقة ذلك، فكم من الفتن قمعها الله عن الأمة وأطفأ نارها بالعلماء الربانيين.

والفتن تمحيص للعباد واختبار من رب العالمين، كما قال الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

والله عز وجل يقدر هذه الفتن تقديراً كونياً، وأمر شرعاً باتخاذ الأسباب للنجاة منها.

فمنها ما ذكرنا، ومنها لزوم التقوى ومراقبة الله، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ومنها الصدق مع الله عز وجل، والصدق في التدين، والصدق في معرفة الحق والبحث عنه واتباعه واتباع أهله، كما قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ومنها التجرد من الهوى، فإن غالب زيغ الناس عن الحق وأهله هو بسبب اتباع الهوى، والهوى لا ضابط له، وهو مدعاة لمعارضة الحق أبداً.

ولهذا حذرنا النبي ﷺ من ذلك، فقد قال ﷺ: «سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم الأهواء كما تجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله».

وكما قال ﷺ: «إنَّ مما أخشى عليكم بعدي: بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء».

ولهذا كان ﷺ يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء».

ومنها فهم قواعد السلف واتباعها في معالجة الفتن ودرئها، والسلف حذروا من التعصب للأشخاص، وحذروا من اتباع الناس على زلاتهم، وأنَّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة، وأن الرجل يُعرف بألفته إذا خفيت علينا بدعته، إلى غير ذلك مما قعده السلف.

ومنها الدعاء، فإنَّ النبي ﷺ كثيراً ما كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

فالحاصل أن المسلم يحتاج بعد رحمة الله وعونه وتسديده إلى ما يثبته على دينه ويدرأ عنه الفتن، ويجمع لك كله العلم، فهو النجاة والعصمة من الفتن.

وكم طالباً للعلـم في كل وهلـةٍ	فبالعلـم من كل الشرور ستسلم
بعلـم كتـاب الله والسنـن التي	ينير بهـا القلـب الكئيب المظلم
فإنْ تكُ مهموماً يكن لك مؤنساً	وإنْ تكُ محزونـاً بـه تبتسـم
وإنْ تكُ ذا ظعنٍ يكن لك صاحباً	وإنْ تكُ ذا جـرحٍ فنعـم المرهـم

فنسأل الله عز وجل أن يستعملنا في طاعته، وأن يثبتنا على السنة، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه/

عبدالله بن صلفيق الظفيري

إمام وخطيب جامع أمير المؤمنين

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما

حفر الباطن

٥/شوال/١٤٣٩هـ